حول دراسة العربية

تعقيد « التقعيد » ..!

للاستاذ أحمد عبد اللطيف بدر

قرأت ما دار حول تدريس العربية في الأزهر ، وقد أثير هذا الموضوع في جريدة المقطم في ٢٦ ـ ٨ ـ ١٩٢٧ ، فلم يبد أحد رأيا حوله ، لوقوف الاتجاهات الفكرية ، وعدم الخروج عن دائرة التزمت العلمي ، لكن الأيام تغير الأفكار ، وتلاين الصلابة الفكرية ، فيعاد تساؤلنا الذي بسطناه حينئذ : « هل تلك التواليف المتعددة .. على تبايناتها ـ قد حصرت القواعد حصرا يمكن الأخذ بها ؟ ، أو أنها تناثرت واضطربت وكانت عقبة يتعذر بها على متشوف العلم التفهم والاستقلال في التصرف ؟ ! ...

« إن التصانيف الموضوعة في هذه العلوم على ركاكة أسلوبها ، وتنافر بحوثها غير مجدية في باب الانتاج العلمي ، والمدارسة في مجموعها سائرة على غرارها ، ويكاد الآخذون يرددون ألفاظها من دون أن يجعلوا للابتكار والتفنن في التعابير وظيفة يعتمدون عليها في إيضاح الطريق وكشف الأسرار عن المعميات الملغزة بالالغاز ومناقشات جوفاء لا تمت إلى البحث العلمي بأدنى صلة ، ثم « التقيد » بتعابير موضوعة كالقوانين التي لا يتصرف فيها أقل تصرف ، فغدت القواعد تحاكي « الاسطوانات » المكرورة ـ وبقيت اللغة محرومة من المقايسة المعقولة وحددها المصنفون الأعاجم ذوو البيان الملتوي ، والمنطق الأبكم تحديدا وضعها في الأغلال ، ولم ينظر إليها المحدثون نظر البصير بل إزدادوا في تعلاتهم والعصر يتطلب السهولة ، والبراعة ، والسرعة وطلاقة الفكر ، والتجديد ، ومراوضة العقول على كيفية التمثيل ... »

« إن الحياة تتطلب ألوانا من التفكير تابعة لألوان الأيام . وإذا كان الكاتبون في علوم البلاغة ، والنحو ، والصرف ، قد انتحوا إلى الناحية اللفظية وخلطوا ، واضطربوا ، فليس لنا أن نأخذ منهم طريقتهم ، لأن عصرنا يخالف عصرهم والأفكار تتمشى بطبعها مع العصور ... »

برمت العقول بما تحدثه « الحواشي » وأشباهها من الافتراضات البعيدة الذاهبة بحقيقة العلوم إلى ما وراء الخيال ، ووقفت الإفادة إلى حد المناقشة في أسلوب التعاريف البلاغية والنحوية ونقد حدودها بأسلوب يحتاج إلى النقد ، وبدهي أن طالب الاستفادة لا يشغله غير ما يدله على موطن استفادته ، أما الأوهام التي يدل عليها قولهم : « فإن قيل » ، فليس لها مدخل في الصميم فتم تشذب هذه التواليف ، وتؤخذ الزبدة حتى تكون سائغة مقبولة ؟

« إن الأعراب كانوا يتطقون بالسليقة والفطرة ، فلم يعرفوا التنافر وضعف التأليف ، والحركة الظاهرة والمقدرة ، والإظهار ، والاضمار ، والاتصال ، والانفصال ـ بل كانوا يرسلون القول إرسالا » .

« إن معرفة الآراء واجبة ، لكن التكليف والارغام ، والموافقة والاستسلام ، لا يجب أن تكون حاجزا بين المناقشة وطرد مالا تستسيغه العقول فليس واجبا حصر العقول في خلافات سيبويه والكسائي والفراء وابن خروف وابن جني ، أو متابعة أقوال السكاكي والزمخشري والقزويني ـ لأن بحوثهم استطرادية » ...

« الطريقة المثلى التي يجب أن تدرس بها علوم اللغة تكون في الاقتصار على الاستشهاد من أقوال العرب الخالصين بالقواعد التي وضعها الأقدمون ثم الإشارة إلى المواضع التي اختلفت فيها الأقوال » .

« يجب أن يقوم بعض المضطلعين بعلوم اللغة ، الواقفين على أسرارها بوضع كتب علمية خالصة تحمل القواعد في أسلوب بعيد عن التلوي والتأويل ، والتجوز ، والمحاورة » .

وقلت في جريدة « الجهاد » : إن لغة التأليف في كتب الأزهر تقوم على التلوي والمداورة ، والتأويل ، والتحوير ، والإلغاز والتعمية ـ واللغة العربية عينة ليئة بعيدة عن التكلف والغموض بل هي أحفل اللغات في التوسع والتجوز ، وحفلت ألفاظها بالمترادفات ، وكثرت التعابير المجازية والكنائية في سلاسة وقرب مأخذ .

لكن السادة المؤلفين ـ وحهم الله ! ـ كانوا يرون البراعة